

## أبدية صغيرة

محمد علي اليوسفي

شام (١)

تلتغ بكل اللغات ، وتظلل قريبة من لغتي . لا تكتفي بذاتها ؛ لذلك  
تسكنني .

شام (٢)

كما بعينين مغمضتين ، وعين ترى لي : أنزل من البرامكة قاصدا  
الحميدية ، فيما تكون الصالحية مقصدي . وإذ أقصد باب توما ، عبر  
الحجاز ، أجدني في المهاجرين ...  
كل ذلك لأنني أسير في الماضي ؛ كما أفعل في كل بيت أعود

---

محمد علي اليوسفي ، شاعر وروائي تونسي - تونس

إليه .

شام (٣)

" هنا تباع أبصال الزنبق وعطر الليل "  
أي على جسر معلق بين الله والضجيج .  
عندما ففز الطفل الذي أحبته في جيبي ، تفقدت مفاتيحي فلم  
أجدها .

شام ٢٠٠٣

هوذا صيفك : في الفم كرز ، وفي العينين غبار . فما الذي  
ينقصني يا شام؟  
قدمي لا تقلع ، وروحي لا تقيم . . .

الصالحية

خطوات للرجال . خطوات للنساء : خطوات متوازية ؛ أحياناً  
تلتقي .

سَلْمِيَّة

رَشَقْتُ كَوْوَسَنَا أَشَعَّةَ كَسَلَى بَيْنَ الْحَقُولِ . كُنَّا أَمَامَ مَعْمَلِ بَلْعَاسِ  
لِلتَقْطِيرِ قَبْلَ تَوْقُفِنَا صَبَاحًا فِي ضَبْعَةِ أَبِي نِضَالِ ، صَيَادِ السَّمَانِ . تَحَدَّثُ ،  
فِي مَخْرَنِهِ ، عَنِ طَيْرَانِهَا الْارْتِطَامِيِّ وَنَحْنُ نَقْتَرِبُ مِنْهَا " سَأَطُوفُهَا  
بِسِيَّاحٍ لِتَتَزَاجَعَ بَيْنَ الْقَضْبَانِ ... " كَانَتْ لِأَحْدَانَا عَيْنٌ عَلَى السَّمَانِ وَعَيْنٌ  
عَلَى الْجِدَارِ حَيْثُ تَتَدَلَّى ضِفَائِرُ رَمَانَ .  
تَرَنُّنُهَا مِنْ ضَبْعَةِ الْيَانَسُونِ إِلَى ضَبْعَةِ الْعَنْبِ حَتَّى ضَعْنَا . وَلَمْ نَجِدْ  
دَلِيلًا إِلَى الشَّامِ سِوَى الْعَرَقِ .

شِئَاءُ بَكْسَا - اللَّادِقِيَّة

سَمَاءٌ دُونَ الْقُطْبِ قَلِيلًا ، فَلَا تَفْتَحُ شَبَابِيكَ نَجُومَ ؛ أَزْهَارُ مَتَوَسِّطِيَّة

أخرى ، أضفت أسماءها العابثة إلى أرضي . المزار فوق التلة ؛ ومن  
حسبته السادن سكير في حياة قديس آبق . السيول متوقفة عند جيوب  
السفح ، والقصب يخفي مياها راكدة .  
أكلنا ورق الخس البري وعبثنا ببيوت الخلد ، حتى حاذينا قبورا  
تغذي بضع سروات صاعدة إلى السماء .  
كنا في كل صباح مشمس نتناول قهوتنا على سطح العائلة ، فيفاجئنا  
الديك الأول وهو يكوّن النشأة .  
سياط البرد كانت هي الأبرز ، في اقتحام كل هبوب نائم ، إلا  
في خمارة حنا السكران .  
كنت أكثرهم دفئا وروحي ترعش ، بينما يميزهم ذلك الدفء  
في الروح .

### مفاتيح القلعة

كان أبو عبده يتهيأ لإغلاق المقهى ؛ لكنه استقبلنا ، وذهب ليأتينا  
بمفاتيح المرقب .  
دخنا النار جيلة وترشفتنا الشاي ونحن نتأمل الجرف حتى البحر  
( إنه المتوسط من أيما ساحل جتته ! )  
بعد الغروب تدخرجنا من السفح . وكان هنالك ، في الأعلى ،  
من يدحرج أحجاره علينا : " الجقل ! الجقل ! " صاح " نادر " .  
فأدركت أنه اسم آخر لابن آوى .

### عمان

الثلج يحرس التلال ؛ بدايتان للكون .

### أم قيس

على أحد أضلاع المثلث :

طَبْرِيَّةُ الْجَوْلَانِ  
أُمُّ قَيْسٍ

وقفتُ إنساناً ... .. قديماً ،  
بينما المطرُ يهطلُ ويُعيدني إلى اللحظة .

بيروت

تبدو العناصرُ جاهزةً أمامنا كي تُشكّلَ الشتاء . لكنَّ كلَّ شتاءٍ يقفز  
بنا إلى مدنٍ أخرى . ماذا فعلنا بعد بيروت سوى إحصاءِ شتاءِ اتنا ؟  
ظَلَّتْ الأبديةُ الصغيرة التي تبسطها الثلوج بين الشام وبيروت ،  
تجعل كلَّ لقاءٍ بطيئاً . فتتقدّم أكثر باتجاه الغرب حيث بيوت  
قادمة ... تركناها .  
نتقدّم ، ويُدكِّ الصغيرة دافئةً في يدي . نبكي فرحاً ، أو نضحك  
ندماً . وأحياناً نعود إلى بيروت .

جبل ترودس - قبرص

أبعدُ من هذا الضباب لن أنزل : الإغريق ، هناك ، في أسفل  
الوادي ، يتحرّكون ...

سامراء

في سامراء ، أحفاد بناوشون جذع الجد ؛  
تسلقوا الملوية الحلزونية ،  
صاعدين إلى سماءٍ أخرى ،  
شاهدوا بركة المتوكّل :  
( صار الأبحرّي قزماً على أبواب الممالك ؛  
ربما لم يسمح له الخليفة إلا برؤية الماء  
فقال عن البركة إنها بحرٌ بعد البحر )

كانت حُجرات الحرِيم تتنفس كتابات العشاق الجدد .

•  
الأحفاد نزلوا أكثر، عبر ردهات وساللم ونقوش :  
قنوات الماء متدفقة تحت القصر ،  
الآبار الأربع أعمدة مائية في كل زاوية ،  
كأنما لترفع القصر ، مزبدة بمياهها نحو جفاف الحاضر .

•  
الأحفاد زادوا في الانحناء :  
سمعوا صلصلة أسلحة وعساكر يصعدون من دون ساللم ،  
يأتون من طابوق التاريخ المشوي إلى فتحات الآبار :  
جنود عتاة في منتهى الغرابة ،  
يتسلقون الجدران الداخلية بمثابرة النمل ،  
ينزلقون ، فيعيدون الكرة . . .

•  
الأحفاد غادروا القصر محاذرين السقوط في بؤرة الأسود ،  
كان الحراس آنذاك مشغولين بالمتوكل ،  
وكان المتوكل مشغولاً برفع المظالم في جناح النساء .

### لاجيء

" أبو حرب " مات ، و " أبو طماعة " بُعِثَ . أما " الكركدن " فقد سقط واقفاً . شمت الخائفون بعيون نصف مغمضة ؛ " رام الله " تحت مستوى بحرّين : أحدهما السماء . أما " غزّة " فقد أودت بها السيول . أنا قشّرت التجربة كلّها ، فظلّ سؤال يورقني : مازال في العمق من ذاتي ، في صمتي الآخر ، لاجئ أخير .

المتوسط

هوذا الوسيط السبيّء ؛

---

بحرنا العجوز:  
لم يعد يتوسط إلا الجغرافيا

ما زالت قرارة الموجة تستقبل العبيد  
لكنهم، اليوم، يتطوعون في قوارب الموت صارخين:  
أين النحاس؟

أما القراصنة فينزلون،  
لكن...  
في اتجاه واحد.

عولمة  
حماري يُرخي أذنيه، يلهث تحتي .  
دبرته توارده في الشمس .  
أنشاه في حقلي ،  
وفي طرف عصاي : إناء مائه اليومي . . . ومخلأة الشعير .

الشتاء الأخير  
شتاءات تقفز فوقنا ، وأناس آخرون... لا أحد بلغ الشتاء  
الأخير حتى اليوم (أي يوم؟)  
تجاوزنا خلافاً في المقارنة ، ووزعنا أعمارنا وفق تعاقب الفصول  
؛ بتنا نخشى الخريف خوفاً مما بعده : سوف نموت وحدنا ويبقى هذا  
" البعد " . أما الشتاء فهو حامل البذور .